Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

5 ـ الكشف بالنسق :

إن ما ورد في هذا الكتاب من أطروحات ليس جديداً كل الجدة، فقد قدم بعضها مؤرخون ومتلفسة ومتأدبون وبلاغيون ودارسو التصوف والنحو والتاريخ (. . .)؛ على أن هذه الدراسات «القطاعية»، رغم أهميتها وضرورتها، قد تمالىء الموضوعات والأشخاص والزمان والمكان. فقد تعلي من شأن بعض أنواع الخطاب وتخفض من شأن أنواع أخرى. فقد تعلي من شأن الخطاب الفلسفي ولا تكترثُ بِمَا عداه، وقد تُسْمِي الخطاب الصوفي وتغض الطرف عما عداه (. . .).

بالإضافة إلى هذا، فإن تلك الدراسات تحكم التقسيم السياسي والمجال الجغرافي وعبقرية الأشخاص في تحليل الظواهر الثقافية؛ هكذا يجد القارىء العصر المرابطي والعصر الموحدي والعصر المريني، وكل عصر مقسم إلى حقب، ويعثر على الأدب موصوفاً بـ «الأندلسي» و «المغربي». . . ويصادف نزاعاً في الشخصيات؛ إن هذه التقسيمات «النوعية» والزمانية والمكانية والانتمائية تؤدي إلى تفضيل نوع خطابي على نوع آخر، وعصر على عصر ومكان على مكان، و «تأميم» للشخصيات.

هيهات أن نحط من قيمة الدراسات التاريخية الحقة المراعية لكل العناصر المذكورة، وإننا لنرى ضرورتها وأسبقيتها، إذ لو استطعنا أن نرصد أخص الخصائص لكل عصر ولكل حقبة ولكل شهر ولكل يوم، ولكل مجالٍ جغرافي إلى الشبر، ولكل شخص في عمله اليومي والليلي، ولكل خطاب إلى الجزء الذي لا يتجزأ لَكُنَّا من الراضين المَرْضِيِّينَ والسعداء المُسْعدِينَ.

وعليه، فإن محاولتنا لا تقلل من أهمية أية مقاربة مهما كان توجهها ومهما كانت قيمتها، ولكنها باعتبار غاياتها تبنت منهاجية بنيوية ـ نسقية في منظور «**الأمد الطويل**»؛ منهاجية بنيوية لأنها رصدت كل خطاب على حدة محللة بنياته الكبرى والصغرى ومقدمة مفاهيم يمكن أن يُفَكَّكَ في ضوئها، ومنهاجية نَسَقية لأنها حاوَلَتْ أن توجِدَ علاقات بنيوية ووظيفية بين أنواع خطابية مختلفة.

إن البلاغة ـ الأصول ـ الكلام ـ الشعر ـ التصوف ـ النحو ـ التاريخ (. . .) «أجناس» مستقلة نقية في غير المقاربة النسقية، وأما ضمنها فهي «أجناس» متداخلة البنى والوظائف. وقد بينا أن الآليات المنطقية والقياسية تحكمت بدرجات متفاوتة في كل «الأجناس» الخطابية المحللة؛ وأنها تهدف إلى وظيفة كبرى؛ وهي التوفيق؛ فهذه